ترجمها ولخصها صباح محيي الدين

## تعريف بالكاتب

يعرّف ارنست همنغواي ( ولد عام ١٨٩٨ ) غاية الفنان بانها «التعبير عن تجربته الشخصية المعاشة بصدق ودقة تصبح معها رمزية وعامة » ( ثاوج كيليمنجارو ) . وواضح ان هدف همنغواي يختلف تمام الاختلاف عن أهداف الواقعيين والطبيعيين الذين ظلوا أسياد الرواية وقتاً طويلاً . ووفقاً لبديهية هذه النظرية ، لا شك في ان نجاح الفنان يتوقف الى حد بعيد على قيمة اللحظات المُعاشة . ولعل في ذلك ناحية الضعف من فن همنغواي ، فهو قد استغل تجربته اعمق مما استغل اي كاتب تجربته ، ولكن هذه التجربة ضيقة الآفاق. وقد وُلد همنغواي بالقرب من شيكاغو وقضى سنواته الاولى في غابات ميشيغان حيث كان أبوه طبيباً وصياداً ، وقد حمل كتابه « في عصرنا » وصفاً رائعاً لهذه الطفولة . وقبل ان تدخل الولايات المتحدة الحرب الأولى ، وبعد فترة من الزمن قضاها كصحفي متجول ، التحق بالجيش الايطالي ، فخرجت من هذه التجربة روايته «وداع السلاح» . وعاش في باريس بين ١٩٢١ و ١٩٢٧ فكتب خير رواية عن الجيل الضائع « ... ولا تزال الشمس تشرق » . وعاد عام ١٩٣٠ فسكن في كاي وست جنوب فلوريدا وكتب رواية عن صيادي السمك والمفكرين الخائبين « ملكٌ او حرمان » . وفي عام ١٩٣٦ توجه الى اسبانيا فشارك الجمهوريين الاسبان آلامهم، وتعرّف عن كثب إلى الرجال الذين قهروا الأنانية في سبيل قضيتهم وكتب روايته « لمن تُدق الأجراس » ؛ ورافق بعد ذلك ، في الحرب الماضية ، عدة معارك في الساحات كمراسل حربي ، حتى إذا انتهى القتال عاد الى اميركا .

ووجوه الشبه بين بايرون وهمنغواي كثيرة : فان كلاً منهما ينعم بحساسية شاعرية وحميّا عنيفة ، وتتميز آثار كل منهما بالقلق نفسه الذي هو قلق العصر ، وبالمثالية نفسها تحميها «القسوة» والسخرية. ولكن بينما تخنق صناعة بيرون البلاغية كل تجربة في حياته ، فان همنغواي يتذكر دائماً انه شاعر وكاتب دقيق وفنان قبل كل شيء.

وأقوى ما تصوره روايات همنغواي وحدة الانسان المعاصر وعزلته وعلاقة هذه الوحدة والعزلة بالعنف . غير ان هذه الوحدة جدار بيننا وبين الآخرين ينبغي هدمه ، اوهي على الأصح مرآة نقائصنا وأنانيتنا، ويجب تحطيمها كيلا تقضي علينا . ان الوحدة تفضي إما الى العنف وإما الى الموت . وحين يصور همنغواي هذه الوحدة، فهو يصور مظهراً من مظاهر الشخصية الأميركية بل من مظاهر مصير الانسان المعاصر كله . ولكن يأتي وقت يصبح احتمال هذه الوحدة فيه أمراً مستحيلاً ، كما هو الشأن في فلسفة سارتر ، فيصبح أمر العنف او الانتحار قبولاً بسيطاً لعبء الانسانية المشترك .

وبين يدي القارىء الآن تلخيص آخر كتاب لهمنغواي، وقد عدّه النقاد الاميركيون اعظم كتاب صدر هذا العام ، وفيه جمع الكاتب تجارب حياته الطويلة ، فجاء الكتاب بسيط العقدة والاسلوب ، الا انه يحمل زبدة الحكمة الانسانية . وهو دفاع عن كرامة الانسان وتمجيد لجهده وان فشل موقتاً. اذ أنّ الانتصار الحق هو الانتصار على الضعف والتعب واليأس ، وليست الاعمال بنتائجها بل بما تحشده من ارادة وعبقرية انسانية .

« الآداب »

## الشيخ والبحر

**The Old Man and the Sea**

كان ... ما كان ...

كان في أحد الأيام رجل عجوز ، يصطاد وحيداً في وسط « الغولف ستريم » ، ولم يكن قد التقط سمكة واحدة منذ اربعة وثمانين يوماً ...

وفي الأيام الأربعين الأولى ، كان يصحبه إلى البحر غلام صغير، ولكن أهل الغلام اعلنوا ـ في اليوم الحادي والأربعين ـ أن الشيخ لا شك منحوس نحساً لا دواء له ، فنقلوا الغلام إلى قارب آخر ، عاد بثلاث سمكات جميلة في اسبوع واحد . وما كان الغلام لينسى الشيخ إذ كانت تربطه به أواصر صداقة متينة ، فكان ينزل إلى الميناء كل مساء ، فاذا أقبل الشيخ في قاربه ، ساعده في حمل شباكه وطي شراعه .

أما الشيخ فكان معروقاً جافاً ، تملأ عنقه تجاعيد كأنها طعنات موسى ، وتخدّ يديه شقوق عميقة مما خلفته الأمراس التي تخبطت في نهايتها مئات الاسماك الثقيلة . وكان كل شيء فيه عجوزاً إلا نظراته، فكانت فرحة طيبة، في لون البحر وصفائه.

وكان الشيخ والغلام يجتمعان كل مساء ويتحدثان طويلاً ، فيعتذر الغلام إلى صديقه لأنه تخلى عنه نزولاً عند أمر والده ، ويعرض عليه ان يصطاد له بعض اسماك السردين لتكون طعماً لصيد الغد . ويستعيد الاثنان ذكرياتهما ، يوم خرج الغلام ، وهو لا يتجاوز الخامسة من عمره ، لاول مرة مع الشيخ فاصطادا سمكة كادت تحطم القارب بضربات ذنبها .

ومنذ ان هبط النحس على الشيخ، احس الغلام بانه مسؤول عن صديقه الذي يعيش وحيداً في كوخ منعزل، فهو يأتيه بالطعام كل مساء، يستدينه من مقهى على المرفأ، ويعد له القهوة كل صباح ويساعده في تهيئة أطعامه وأمراسه وفي دفع القارب الى البحر .

وفي هذا اليوم الخامس والثمانين ، خرج الشيخ باكراً بقاربه من الميناء وهو على علم بانه سيذهب بعيداً . وأخذ قاربه يمخر وسط الاشنة* المتلألئة ويشق طريقه بين طبقات القريدس والاسماك التي تصعد ليلاً الى سطح البحر .

وما ابتعد الشيخ الا قليلاً عن اليابسة حتى اخذ الفجر يذر قرنه ، والحياة تدب في البحر الذي اخذ يتحرك ويتنفس ، وتملأه الاسماك الطيارة حركة حين تقفز وتخبط الماء إذ تسقط . واستمر الشيخ يجذّف ، وسطح البحر أملس إلا من تجاعيد يأتي بها التيار من آن إلى آخر ، وحين بدا النهار وجد انه قد سار أبعد مما كان يؤمل .

وقبل ان يتكامل نور النهار أرخى الشيخ لقاربه العنان في التيار ، وأنزل أطعامه — وكانت عامرة كأنها عناقيد من الاسماك الصغيرة المتلألئة بحيث لا يبدو من معدن الصنارة

* شيء نباتي يتكون على الشجر والصخور .

مليمتر واحد — واخذ يجذف ببطء ويراقب العيدان الرفيعة التي التفت حولها امراس الأطعام ، بحيث تكون الخيوط عمودية مشدودة ، فتنزل الصنارات الى أعمق ما يمكن .

وبزغت الشمس اخيراً فرأى الشيخ قوارب اخرى قابعة على مستوى البحر في مجرى التيار ، ثم تعالت الشمس فأحرقت باشعتها اليم ولطمت عيني الشيخ ، ولكنه ظل يجذف محوّلاً رأسه عن الوهج ومخاطباً نفسه :

— لعل هذا اليوم يوم السعد المنتظر !

وإذ مضى على شروق الشمس ساعتان، لم يعد في مرمى نظر الشيخ سوى ثلاثة قوارب بعيدة عنه ، قريبة من الشاطيء ، فأحسّ بالوحدة تشمله بين أديمي الماء والسماء . وأخذت الساعات تمر كسالى، لا يؤنس وحدتها سوى نسر يحلّق في كبد السماء ويهوي كالجلمود على فرائسه من السمك وبعض السلاحف الخضر من ذوات المناقير ، او افواج من رئات البحار ذوات السُم ، أو قافلة من اسماك التنّ ...

واعتلت الشمس قبة السماء واخذت تحرق قفا الشيخ ، وغاب عنه خط الساحل فبات لا يتبيّن سوى قمم التلال الخضر والسحب تكللها كأنها جبال سامقة من الثلج . وارتدى البحر لوناً داكناً ، واخذ النور يقطع في الماء مواشير من الضياء . وقدّر الشيخ ان عمق البحر الف متر على الاقل في هذه المنطقة.

واشتد حرُّ الشمس فسال العرق في ظهر الشيخ ، فقال : « في امكاني ان ارخي قاربي للتيار وأغفو قليلاً ويكفي ان ألف الخيط على رأس اصبع قدمي حتى يوقظني اذا جدّ شيء .. » ثم عاد يقول : « ولكنّ هذا يومي الخامس والثمانون ، ويجب ان لا اترك شيئاً للصدفة » .

وفي هذه اللحظة بعينها ، غطست احدى العيدان التي تقوم مقام الطوّافات رأسها فجأة في الماء فصاح الشيخ :

يالله ! ها أنا آت .

وانحنى برفق على الخيط وأخذه بيده اليمنى بين الابهام والسبابة فلم يحس بأي ثقل أو توتر فيه ، فاطبق يده على الخيط بخفة . وهنا شعر بان ثمة شيئاً يشد شدّاً رفيقاً لا يكاد يحس ، ولكن الشيخ عرف على التحقيق ما هو ذلك الشيء ، فعلى عمق مئة قدم كان سيف * يأكل اسماك السردين التي تغطي الصنارة قبل ان يبتلع المعدن المعقوف .

وأخذ فكر الشيخ يعمل بسرعة :

* نوع من الأسماك الضخمة .

– بالنظر الى الموسم والى بعدي عن الشاطيء – فلا شك في ان هذه السمكة ضخمة جداً .

ثم اخذ يخاطب السمكة :

– كلي يا سمكة ، كلي هنيئاً مريئاً ! لاجلك بيّتُّ الطعم في اعماق الماء ولاجلك تجشمت الصعاب .

واهتز الخيط هزّة خفيفة ثم اخرى ابين منها .. ثم سكنت النأمة . وقال الشيخ بصوت عال :

– تعالي ، تعالي .. ذوقي هذا ، أليس أكلة نفيسة .. كلي ما تشائين من السردين اللذيذ .. لا تخافي يا صغيرتي ، كلي وتمتعي!

★

وازدرد السيف الطعم بكامله وابتلع الصنارة الضخمة . و إذ احس بالمعدن يجرح شدقه هبط الى الاعماق كمن يلتمس فيها النجاة ، فعمد الشيخ الى خيطين كان احتاط بهما للطواريء ، طول كل منهما اربعون قامة ، فربطها بالخيط الذي يحمل الصنارة ، كي يترك لصيده مجال الحركة علّه يتعب فيستسلم لمصيره .

واخذ السيف يشد الخيط والقارب معه بقوة عظيمة ، ثم أسرع في مسيره كأن الشيطان قد ركبه ، فقال الشيخ : لكل أمر نهاية ، وليس في إمكانه ان يظل على هذه السرعة حتى آخر الدنيا .

ومضت ساعات اربع ، والسمكة ما زالت تسبح نحو عرض البحر ، تشد القارب خلفها ، والشيخ متقوس بكل قواه على جانب القارب ، والخيط مشدود على ظهره ، يجز فيه ويؤلمه .

وقال الشيخ : لقد بلع هذا السيف الطعم عند الظهر ، وانا بعدُ لا ادري كيف هو واي شيء يشبه ، وها قد غابت اليابسة عن العيان وان كان لا يهمني هذا ، فما زالت امامي ساعتان قبل مغيب الشمس . فاذا لم يصعد الى السطح الآن فسيصعد مع القمر ، وإلا فسيصعد غداً – وانا قوي ... ولكن يا ليتني اراه ولو لحظة كي أعرف من هذا الذي أكافحه !

وجُنّ الليل دون ان يخفف السيف من سرعته او اتجاهه ، وظل يسحب القارب دون هوادة . واحس الشيخ بالتعب يغزوه فقال :

– ليت الغلام معي ، إذن لاعانني ... ورأى هذا ..

وسمع الدلافينَ تلعب في البحر وتقفز ثم تغطس في مرح ، فأحس بالكآبة للسمكة التي تعاني سكرات الموت في الاعماق وناجى نفسه : – لقد خدعتها وسقتها الى هذا المصير بما نصبته لها من حبائل ... انها كانت في الاعماق ، بعيدة عن الخونة امثالي ، فجئتها وبحثت عنها ، وسرت اليها ابعد من اي صياد قبلي . وها نحن الآن متحدان ، مرتبطان منذ منتصف النهار ، لا ننتظر العون او الشفقة من احد .

★

وعند الفجر قطع الشيخ كل الخيوط الباقية وربطها بالخيط الرئيسي . . وطلع الفجر بارداً رطباً ، ثم اعتلت الشمس كبد السماء ، ولم يبد على السمكة تعب او وهن ، وان كان انحناء الخيط يدل على انها تسبح على عمق اقل من ذي قبل . وابتهل الشيخ الى الله :

– ربّ اجعلها تقفز فتمتلىء بالهواء الأكياس الموجودة تحت ظهرها فلا تستطيع ان تغوص فتموت في قعر الماء وتذهب كل جهودي هباء .

ولم يكن يجرؤ على شدّ الخيط وتقصيره خشية ان تخرج الصنارة من شدق السمكة ، واخذ يخاطب السمكة من جديد :

– يا سمكة انا احبك واحترمك .. احترمك جداً ولكني سأسلخ جلدك قبل اخر النهار ( أو هذا ما أؤمله ) .. قالها بينه وبين نفسه .

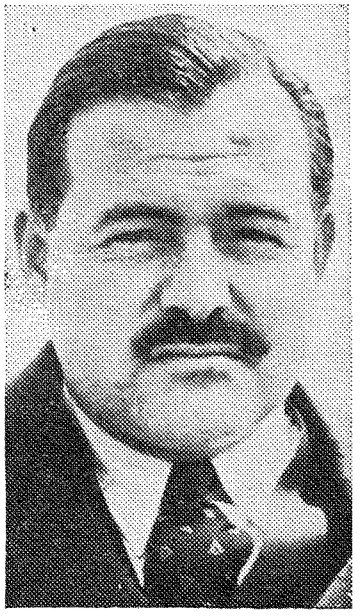

ارنست همنغواي

ولم يبدُ على السمكة ما يدل على انها ستغير سرعتها او اتجاهها ، وظل الشيخ متيقظاً ، يرقب الخيط علّه يأتي بجديد . وحطّ على الخيط عصفور صغير فآنس الشيخ في وحدته وانساه بعض الالم الذي يجز في ظهره وعنقه ، فقال للعصفور :

– ابق معي قليلاً ..

وأوشك ان يبدأ معه في حديث طويل .

وفي هذه اللحظة قفزت السمكة قفزة هائله القت بالشيخ على وجهه في قعر القارب وأدمت جبينه وجرحت يده ، وكادت

ان تلقيه في البحر لولا ان تمسك بجانب القارب. وطار العصفور دون ان يراه الشيخ اذ شغل بيده فانزلها في المـــاء كي يلتئم الجرح فيهـا ، واحس إذ ذاك ان سرعة القارب قد خفت كثيراً .

وشعر الشيخ بأن يـــده التي تمسك الخيط اخذت تتقلص وتؤلمه الماً يكاد لا يطاق فقال :

ـ يا ليت الغلام معي اذن لفرّك يدي وقبضتي فعاد اليهما الدم ... ولكنه ليس هنا ، فلأتجلد !!

وفجأة، وقبـــل ان يرى اي تغير في انحناء الخيط ، احس بتبدل في توتره ، ورآه يرتفع فقال :

ـ ها هو يصعد ..

واخذ الخيط يعـلو بانتظام ، رويداً رويداً ، وارتفـــع الاوقيانوس في مقـدم القارب وبدا السيف خارجاً من الماء ، كأنه لن ينتهي لطوله ، والماء يسيل على اعطافه اللامعة في نور الشمس .وكان رأسه وظهره بنفسجيين داكنين والشمس تضيء الخطوط البنفسجية العريضة على جوانبه. اما انفه فكان طويلاً ، طويلاً كأنه مضرب « بيزبول » *

وظهر السيف بكامله لحظة ، ثم عاد الى الغوص بسهـــولة السابح الماهر ، ولكن الشيخ استطاع ـ في هـــذه الفترة القصيرة ـ ان يرى ذنبه المنجلي الكبير وهو يغوص . . . بينما عاد الخيط الى الكرّ . وقال الشيخ بدهشة عظيمة :

ـ انه أطول من القارب بقدمين ! !

وكان الشيخ قد لاقى كميات من سمكات السيف ، يزن بعضها خمسمئة كيلوغرام ، واصطاد منها اثنتين في حياتـــه . ولكنه لم يكن وحيداً آنذاك ، اما اليوم فهو وحيد ، وقـد غاب الشاطيء عن عينيه منذ زمن طويل ، وها هو قـد علّق أضخم سمكة شاهدها في عمره الطويل .

واحس انه بحاجة الى من يساعده فأخذ يتمتم :

ـ لست بتمكن من قضايا الدين ولكني مستعـــد لقول عشرة « ابانا » وعشرة « السلام عليك يا مريم » لاصطاد هـذه السمكة . اما اذا اصطدتها فنذر عليّ ان أحج الى مزار العذراء في المدينة .

وأخذ يصلي آلياً . وحين فرغ من صلاته شعر انـه أنشط وأصح وأقوى على النضال .

★

* Baseball

ومـالت الشمس الى المغيب ، ودبّ التعب في الشيخ ، وعلم ان الليل قريب ، وانطلق فكره الى السمكة التي تناضل الموت في الاعماق ، فشعر نحوها بشفقة اخوية وقال :

ـ لو ان لي الخيار لفضلت ان اكون مكانها ... هذا إذا لم تأتها الاقراش * ... فعند ذلك يرحمها ويرحمني الله .

واستمر القارب يمخر في الاتجاه الذي اختـاره السَيْفُ ، فانتهز الشيخ الفرصة ليأكل لقيمات ويشرب جرعة من الماء .

واتى الليل من جديد فأحس بآلامه تزداد في ظهره حيث الخيط يأكل في لحمه ، فاستند إلى جانب القارب واستراح هنيهة دون أن ينزل الخيط عن ظهره، وما عتم ان غلبه النعاس والجهد فأغفى واخذ يحلم بالقرية وانه نائم في فراشه في الكوخ .

وكان القمر قد طلع منذ زمن ، والسمكة ما تزال تسحب القارب والشيخ الغافي في انطلاقة منتظمة . وعلى حين غرّة ، انتفض الشيخ كأنه نال لطمة على وجهه ، وأحس بالخيط يسلخ جلد يده اليمنى ، فحشد قواه ليوقف الخيط ثم قبض عليه بيده اليسرى وضغط عليه بظهره .

وفي هذه اللحظة قفز السيف قفزة فتحت فجوة عريضة في الاوقيانوس ثم هوى بثقل ، وعاد يقفز من جـــديد ويسحب القارب بسرعة عظيمة على الرغم من طول الخيط الذي ما انفك الشيخ يرخيه له ، وعلى الرغم من جهوده في الشد على الخيط في حدود قواه . وألقى النضال العنيف الشيخ على وجهه في قعر القارب فبات لا يستطيع حراكاً . ولم يكن باستطاعتـه ان يرى السمكة الا انه كان يسمع صوت قفزها وسقوطها،والخيط يكر بسرعة هائلة فيحز يديه ويسلخ جلدهما، وتمنى لو ان الغلام كان معه لبلّ الخيوط . وردد بصوت عال:

ـ ليته كان هنا .

واستمر الخيط في كرّه ، غير ان سرعته اخذت تتضاءل شيئاً فشيئاً واستطاع الشيخ ان يرفع رأسه ويستوي قـــائماً ، فأخذ يقاوم شد السمكة ويقول :

ـ لقد قفزت اكثر من عشر مرات وملأت بالهواء الاكياس التي تحت ظهرها ، وليس في استطاعتها بعدُ ان تغوص وتموت في الأعماق بحيث لا استطيع استخراجها ، وهي لا شك ستبدأ قريباً بالدوران في حلقات ! وعندهـا ستكون الكلمة لي .. فأقودها حيث أشاء ..

* جمع قرش : نوع من الاسماك المفترسة .

وبزغت الشمس للمرة الثالثة عـــلى الشيخ وقاربه ، وبدأ السيف يدور حلقات حول القارب . ثم مضت ساعتان طويلتان ، نضح فيهما العَرقُ الشيخ وارهقه الجهـد حتى العظم ، ولكن الحلقات اخذت تضيق تدريجاً ، وبدا — من ميلان الخيط — ان السيف بدأ يقترب من سطح البحر .

وكان الشيخ ، منذ ساعة ، يرى بقعاً سوداء تتراقص امام عينه ، ويحس بالعَرق يسيل في عينيه فيحرقهما ملحُه ، ويحرق الجروح التي خلّفها في جبينه سقوطه على أرض القارب ، كما انه شعر مرتين بحسر ودوار .

... ثم بدت السمكة للعيان ، كظل اسود باديء الأمر ، يمرّ تحت القارب . ولم يصدق الشيخ عينيه وقال :

— ليس هذا بممكن . ليس ممكناً ان تكون في هـــذا الحجم .

ولكن الواقع انها كانت في ذلك الحجم .. وحين خرجت من الماء بكاملها على مسافة خمسة وعشرين متراً من القارب ، رأى الشيخ ان ذنبها المنتصب اعلى من سنان منجل كبير .

وكان الشيخ يسيل عرقاً من الحرّ والجهد ، ولكنه كان يكسب طولاً من الخيط كلما دارت السمكة مرّة ، ولم يعـد بينه وبينها سوى مقدار دورتين كي يطعنها بالخطّاف .

وكان الخطّاف مهيئاً منذ زمن طويل ، مربوطاً بلفافة من المرس الرفيع الملفوف في سلةٍ مدورة ، وطرفه معقود الى مقدّم القارب .

ومرت الدقائق ثقيلة متعبـة ، يحاول الشيخ ان يقرب السمكة الى مرمى الخطّاف والسمكة تخادع وتدور ، فخاطبها باستسلام :

— انك تريدين قتلي .. وهـذا حقك يا صاحبتي ، فانا لم اشاهد اضخم منك ولا انبل او ابدع .. هيا اقتليني فلم يعـد يهمني من منا يقتل الآخر .

ثم قال بصوت يكاد لا يسمع :

— احتفظ بهدوئك يا شيخ .. احتفظ بهدوئك ..

ودارت السمكـة مرتين اخريين حاول الشيخ فيهما ان يطعنها بالخطّاف ، ولكن دون نتيجة وشعر انه عـــلى وشك الاغماء فقال :

— لست ادري ما بي .. سأحاول مرة اخرى .

وجمع كل ما تبقى لديه من قوة وشجاعة وعنفوان ، والقى بها ضد السمكة المحتضرة اذ اقتربت من القارب وهي تسبـح برفق وانفها يمسّ جانب القارب ، وكادت ان تخلفه وراءها من جديد . وعندئذ رفع الشيخ خطّافه الى اعـــلى ما امكنه ، وبقواه جميعها ، مضافاً اليها كل يأسه وأمله ، اغمد الخطّاف في جانب السمكة خلف الزعانف الصدرية ، واحس بالحديد يشق اللحم ، فضغط عليه ومال بكل ثقله كي يـدخل الى اعمق مدى ممكن .

وشعرت السمكة بالموت يمزق احشاءها فعادت اليها الحياة . وفي انتفاضة اخيرة رائعـــه قفزت قفزة هائـــلة وظلت معلقة في الهواء فوق الشيـخ والقارب مدة ثانية ، ثم هوت بثقل في اليم . وغمر الرشاش الشيخ وقاربه كأنه ميزاب من المطر .

وكان الشيـخ مجهداً الى آخر حد ، لا يكاد يرى بعينيه . وحين عاد نظره اليه ، كانت السمكة ملقاة على ظهرها ، وبطنها الفضي يلمع في الشمس . وشرب الشيـخ جرعة من الماء ثم جمع شتات قـواه فربط السمكة الى جـانب القارب ، وكانت من الضخامة بحيث خيل اليه ان قاربه الصغير يجر حذاءه قاربـــاً اطول واوسع . ثم فرَد الشراع واتجه نحـو البر تقوده الرياح الموسمية ، واصطاد بعض القريدس فأكله وشرب جرعتين من الماء ثم استراح برهة .

ومضت فترة طويلة قبل ان يدرك الشيـخ انه لم يحلم بـل اصطاد حقاً هذه السمكة الهائلة ...

★

وبعد ساعة من الزمن اقبل اول قرش ، متتبعاً أثر الدم الذي كان يسيل من السيف . ونظر الشيخ إلى فمه الذي يضم ثمانية صفوف من الانياب الحادة التي يبلغ طول واحدهـــا الاصبع ، فهيأ خطافه للطعن ، وأحس بأنه هاديء الاعصاب ، ممتليء حيوية . ولم يكن ليتوهم أنه سيخرج منتصراً من المعركة التي أوشكت ان تبدأ ، بل كان يقينه انه خاسر ، إن لم يكن امام هذا القرش ، فأمام المئات من اقرانه التي ستشم رائحـــة الدم فتتبع القارب والصيد .

وأخرج القرش رأسه من الماء واطبق فكيه عـلى جانب السيف فمزق الجلد واللحم . فأطلق الشيخ خطافـه بقوة وحنق وحقد ، فاستقر في عين الوحش الذي انقلب على جانبه من هول الطعنة وعلم الشيخ انه نال منه مقتلاً . ثم انتفض القرش انتفاضة الموت فقطع مَرَسَة الخطاف وغاص به الى الاعماق .

وقال الشيخ :

ـ لقد اخذ هذا الكلب خطافي .. و ٤٠ قدماً من المرس، والآن سيأتي الآخرون ...

ولم تعد فيه رغبة للنظر الى السمكة المشوهة وشعر كأن القرش قد نهش احشاءه حين قضم جانب السيف واخذ يتمتم :

ـ يا ليت الامر كله كان حلماً .. يا ليتني لم اصطد هذا السيف ... يا ليتني كنت في سريري ! !

★

ولكن انتصاره المؤقت على العدو ملأ رأسه بدم الشباب :

ـ الرجل من لا يعترف بالهزيمة ... فهو قد يُدمّر ولكنه لا يُهزَم ... شدّ ما انا آسف لقتلي السيف ... والمعركة لم تنته بعد ، ولم يعد لدي سلاح . ولكني سأربط سكيني بمجذاف ... لا شك في أني شيخ هرم ، ولكني سأناضل ..

وسار القارب مدة ساعتين، ثم أبصر الشيخ أول القرشين .. ثم ثانيهما . وكان الوحشان في حالة ظاهرة من الهياج والجوع. فقبض الشيخ على المجذاف الذي ربط به سكينه ورفعه في الهواء برفق لان راحتيه كانتا تؤلمانه ألماً فظيعاً .

وكان القرشان من نوع نهم لا يتورع عن نهش المجاذيف وخشب القوارب ومهاجمة الانسان اذا كانت رائحته رائحة سمك او دم .

وهجم الاثنان معاً ، فنزل الاول تحت القارب واخذ ينهش السيف ، فيهتز القارب بأكمله لكل نهشة، بينما ظل الثاني يرقب الشيخ بعين صفراء قذرة ، ثم انقض بدوره على القسم المنهوش من السيف ، فبادره الشيخ بطعنة اتبعها باخرى ، فانفغر شدقه وغاص في اللجة . وعندها حول الشيخ سير القارب فاضطر القرش الثاني الى الظهور ، وطعنه عندها طعنة لم يبد انها اصابت منه مقتلا ، اذ عاد الى الهجوم من جديد . وحين بدت قمة رأسه ، انزل الشيخ سكينه في مكان أول طعنة ، ولكن القرش لم يرخ فكيه ؛ ففقأ الشيخ عينه ولكن القرش لم يتحرك ... فأغمد الشيخ سكينه بين الفقار والدماغ واحس بالغضروف ينشق تحت طعناته ثم ارتخى القرش وغاص الى الاعماق ..

وتنفس الشيخ بارتياح ومسح سكينه ، ثم عاد الى قاربه يسيره في اتجاه البر ، وهو يتنهد قائلا :

ـ لقد أكلوا ربع السمكة على الاقل..واطيب ما فيها . يا ليتني كنت في حلم ... ولم اصطد هذا السيف .

ولم يعد يملك الشجاعة للنظر الى السمكة وقال :

ـ انا حزين من اجلك يا سمكة ... ما كان لي ان اذهب بعيداً كما فعلت . . لا من اجلي ولا من اجلك .. عفوك يا سمكة .

★

وأقبل القرش التالي منفرداً واندفع نحو السيف كخنزير نحو معلفه ، لو ان للخنزير شدقاً يسع رأس رجل . وتركه الشيخ ينهش ثم اغمد سكينه في دماغه . وحين تلوّى القرش وهو يحتضر قفز الى الخلف فانكسر نصل السكين ، ولم يبق في يد الشيخ سوى المجذاف فقال :

ـ لم يعد لديّ سوى المحجن،ولكنه ليس بذي فائدة ضد الأقراش ..ثم لديّ المجذافان، ولديّ السُّكان ولديّ الهراوة.

ولم يكن الشيخ ليجهل انه قد خسر المعركة ولكنه أبى ان يستسلم لليأس واخذ يصيح :

ـ لقد غلبوني ، فأنا اهرم من ان اقتل الاقراش بالهراوة ، ولكني سأناضل ... سأفعل ... ما دام فيّ رمق وما دام السكان والهراوة والمجذافان في يدي .

وغمس يديه من جديد في البحر علّ آلامهما تخف قليلاً . وكان النهار قد مال نحو الاصيل واخذت الريح تهب نحو البرّ، فأمّل الشيخ ان يرى الشاطىء بعد قليل .

★

ولم تعد الاقراش الى الهجوم الا عند المساء ، إذ ابصر الشيخ زعنفتين تتجهان معاً نحو القارب ، فقبض على هراوته ، وكانت مصنوعة من قبضة مجذاف طولها نحو متر ، ولا يمكن استعمالها إلا بيد واحدة . وانقض القرشان معاً على السمكة ، وحين أطبق اولهما فكيه على بطنها الفضي ، رفع الشيخ هراوته ثم انزلها في ضربة قاصمة على رأسه العريض ، ثم اتبعها باخرى حين انفصل الوحش عن السمكة وهوى الى الأعماق. أما الثاني فكان قد قضم اكثر من مرة من لحم السيف حين التفت اليه الشيخ وضربه ، ولكنه لم يتحرك ، فضربه من جديد ولكنه لم يصب منه سوى موضع مطاط من الرأس فابتعد عن القارب . وصاح به الشيخ : عد لأريك .

فعاد بسرعة البرق ، فتلقاه الشيخ بضربة هائلة على عظم رأسه اتبعها بضربات ... وهوى القرش وفي فمه قطعة من السيف ..

واستمر الشيخ في نضاله ضد الاقراش ، دون هوادة او ملل ...

وأتى الليل كرة اخرى ، وخيل للشيخ انه مات وانتقل الى عالم آخر ، لا نور فيه ولا ضجة ، ولا صحبة سوى الريح والقارب . واستلقى نصف استلقاءة في قاربه واخذ يترقب انوار الشاطيء .

وحوالى الساعة العاشرة، بدت له هالة النور المنبعثة عن المدينة ، فوجه قاربه نحوها ، وقدّر انه ليس ببعيد عن حاشية التيار . وأدرك ان امره قد انتهى وان الاقراش لا شك عائدة قريباً.. ثم ماذا يصنع في الظلام وقد ذهب كل سلاحه ؟

وكان التعب قد اضناه ، وأيقظ برد الليل جراحه وآلام جسمه العاني فقال :

— كل رجائي إن لا اضطر الى ضربهم من جديد .

ولكن المعركة نشبت مرة اخرى لدى منتصف الليل،وكان الشيخ موقناً ، في قرارة نفسه ، من ان كل عمله غير مجد ، فالأقراش كانت قطيعاً كاملاً، ولم تكن العين تتبين سوى آثار الزعانف في الماء والمشحات الفوسفورية التي تخلفها الأقراش وهي تندفع نحو السمكة. واخذ الشيخ يخبط في الظلام على رؤوس الوحوش ، ويسمع قعقعة فكوكها ويحس تأرجح القارب على ظهورها . وكان الشيخ يدافع باستماتة ضد عدو يسمعه ويحسه ولكنه لا يراه .

وفجأة .. طارت الهراوة من يده ،فقد استولى عليها احد الأقراش عنوة .

وعندئذ حل الشيخ دفة السكان ، وقبض عليها بكلتا يديه وعاد يخبط من جديد خبط عشواء في غير اتجاه معين . ولكن الأقراش ما كانت تبالي ، وتتدافع إلى جانب القارب زرافات ووحداناً وتنطلق نحو السمكة فتنهش قطعاً منها .

ثم اقبل آخر قرش وهجم على الرأس ، فعلم الشيخ ان السيف قد اصبح هيكلاً اجرد ، فهز الدفة ثم اهوى بها على رأس القرش مرة ثم اخرى .. ثم عشر مرات، وتحطمت الدفة، ولكن الشيخ استمر يضرب بها وشعر انها تغوص في رأس الوحش الذي تلوّى ثم هوى الى الأعماق . وكان آخر واحد في القطيع إذ لم يعد في السمكة ما يؤكل .

وكان الشيخ يتنفس بصعوبة وملأ فمه طعم غريب ،حديدي حلو في الوقت ذاته ، فبصق في البحر وقال للاقراش :

« ابتلعوا هذا ، واحلموا انكم قتلتم رجلاً . » ذلك انه ادرك انه خذل وهزم هزيمة لا مَرَدّ لها . وعاد الى مؤخر القارب فحاول ان يولج بقايا الدفة في شق السكان ، ولكنه وجد من المستحيل قيادة القارب ، فلفّ جسمه المضني في كيس من الخيش وضغط على السكان في اتجاه البر . وكان القارب خفيفاً جداً الآن ، بعد ان ذهب الثقل من جانبه . وفارق الشيخ كل شعور او تفكير ، وانفصل عمّا حواليه ولم يعد يرغب في غير شيء واحد ، وهو العودة بالقارب الى الميناء على خير وجه .

وفي الظلام ، كانت بعض الأقراش تأتي فتنهش هيكل السيف ، كالمساكين المتهافتين على بقايا الموائد . ولم يكن الشيخ يعيرها اي اهتمام ، إذ لم يكن يهتم لشيء غير شراعه . وكان القارب قد دخل مجرى التيار ، واخذ الشيخ يرى الأنوار المبعثرة على طول الشاطيء ، ولم يعد الرجوع الى الميناء سوى لعب اطفال ، واخذ يفكر :

— إن الريح معنا على الأقل ، وكذلك البحر..والسرير. نعم السرير ! هذا صديق امين ، كم يلذني ان امتدّ فيه . . . ثم قال : ما أسهل الأشياء بعد الفشل ، ما كنت أظن انها بهذه السهولة ! ولكن ما الذي جعلني اعود بخفي حنين ؟

واجاب على سؤاله :

— لا شيء ، سوى انني ذهبت أبعد مما يلزم .

★

وحين دخل الشيخ المرفأ كانت القرية نائمة فحلّ الصاري ولف الشراع عليه ، ثم حمله على كتفه واتجه نحو كوخه. وعندها احس بعظم تعبه فتوقف لحظة ثم انثنى فرأى على ضوء احد المصابيح ذنب السيف وهو يرتفع بعلو مقدم القارب ، وتبين عموده الفقري كالخيط الأبيض ، ورأسه الأسود وسيفه ، ثم الفراغ الواسع ما بين هذا كله .

واضطر الشيخ الى الجلوس خمس مرات قبل ان يصل الى كوخه. وحين وصل اليه أسند الصاري الى الجدار وشرب جرعة ماء من قنينة كانت هناك ثم سقط على السرير وسحب الغطاء على كتفيه واستلقى صدره ، وذراعاه مصلبتان ، ونام .

★

وكان الغلام يأتي كل يوم ليتفقد صديقه . وفي صبيحة هذا اليوم فتح الباب على عادته ومدّ رأسه من خصاصه فرأى الشيخ غارقاً في نومه فانحنى عليه ليتأكد من انه يتنفس.ثم نظر الى يديه المثخنتين بالجراح فبكى ، وخرج مسرعاً ليأتي بالقهوة. وكانت

الدموع تسيل من عينيه وهو يركض نحو المرفأ ، ولكنه لم يكن ليبالي بالدموع .

وكان الصيادون يحيطون بالقارب يفحصون ما يحمله الى جانبه بينما نزل احدهم الى الماء يقيس هيكل السمكة . وصاحوا بالغلام :

— كيف حال الشيخ ؟

فاجابهم : انه نائم .

فقال الذي قاس السمكة :

— ان طولها ستة امتار .

فردّ عليه الغلام : أو تستغرب هذا ؟

وعاد الغلام بالقهوة الساخنة الى الكوخ ، وظل قابعاً الى جانب الشيخ حتى يفتح عينيه . وبدا على الشيخ مرّة انه يستفيق ، ثم عاد الى سباته العميق . وعبر الغلام الشارع ليستدين بعض الحشب لتسخين القهوة . واخيراً تململ الشيخ على فراشه وفتح عينيه فقال له الغلام :

— لا تتحرك واشرب هذا .

ثم صبّ بعض القهوة في قدح ،فأخذه الشيخ وشرب ثم قال:

— لقد هزموني ! لقد هزموني .

فأجابه الغلام : ولكنه لم يهزمك هو ( يعني السيف ) .

— صحيح ! فانهم هزموني بعد ان تغلبت عليه ... شدّ ما وددت أن تكون معي في هذه المعركة .. وانت ماذا اصطدت ؟

— سمكة كبيرة اول يوم ، واخرى في اليوم الثاني ، واثنتين في اليوم الثالث .

— صيد حسن .

— لا عليك ، سنذهب الى الصيد معاً من جديد ، نحن الاثنين .

— لا ، لا .فاني منحوس ،وليس لي حظ بعد الذي حدث .

— الحظ لا يهمني ، فلديّ منه ما يكفي .

— وماذا سيقول اهلك ؟

— وهذا ايضاً لا يهمني .. ثم ، ما زالت امامي اشياء كثيرة ، يجب أن اتعلمها وأنت خير معلم لي.

فبدا في عيني الشيخ بارق من الارتياح وقال :

— سيلزمنا رمح لسفراتنا المقبلة ، مدبب متين ، فقد انكسرت سكيني في جسم الأقراش .

— سأجد لك سكيناً اخرى . والآن يجب ان تهتم بيديك وسآتيك ببعض المرهم من الصيدلية ، وبالطعام والصحف .

وحين خرج الغلام من الكوخ ، عاد الى البكاء .

★

وكانت القرية ، في ذلك اليوم ، تستقبل عدداً كبيراً من السياح ، جلسوا في المقهى قرب المرفأ ينظرون الى البحر والسفن . ورأت احدى السيدات عموداً فقرياً ابيض طويلاً ينتهي بذنب عظيم يرقص على البحر ، فسألت الخادم «ما هذا ؟» مشيرة إلى السيف الذي لم يبق منه سوى هيكل تتلاعب به الامواج ،فأجابها بلغته الاسبانية : — هذا سيف ذهب ضحية الاقراش . فلم تفهم السيدة سوى الكلمة الاخيرة فقالت لرجل الى جانبها :

— ما كنت أظن ان للاقراش هذا الذنب الجميل وهذا الشكل البديع .

فأجابها الرجل : — وانا كذلك .

★

وفي الكوخ ، هناك في اعلى القرية ، كان الشيخ قد عاد الى النوم وهو ما زال في استلقائه على صدره ، وجلس الغلام الى جانبه ينظر اليه في نومه ...

غرناطة — الاندلس

**صباح محيي الدين**

# مسابقة «الآداب» للقصة

تقيم مجلة «الآداب» مسابقة للقصة يحق لجميع ادباء البلاد العربية ان يشتركوا فيها بالشروط التالية :

**١) ان تكون القصة موضوعة غير مترجمة ولا مقتبسة ولا منشورة .**

**٢) ان تعالج موضوعاً يهمّ الجماعات العربية او الفرد العربي .**

**٣) ان تكتب كلّها باللغة العربية الفصحى .**

**٤) ألاّ تتجاوز ثماني صفحات من «الآداب» .**

اما الجوائز فثلاث :

الاولى : ٣٠٠ ليرة لبنانية او ما يعادلها .

الثانية : ١٥٠ « « « «

الثالثة : ٥٠ « « « «

تقبل القصص حتى اول شهر آب ( اغسطس ) من العام الحالي ١٩٥٣ .

وستؤلف لجنة محكمة تعلن اسماء اعضائها فيما بعد . اما القصص الثلاث الفائزة فتنشر ابتداء من عدد تشرين الاول (اكتوبر) من «الآداب» .